التجديد في شعر أبي تمام
مطالع القصائد – أنموذجا–

أ/ علي عالية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة

ملخص

يتناول هذا المقال بعض النماذج من مطالع القصائد في شعر أبي تمام، فيقسمها قسمين:

1– مطالع استهجنها القدماء رغم مافيها من جدة وإبداع، وقد أوردنا حجج النقاد الذين استهجنوها، وحاولنا تقديم جانب الجدة والإبداع فيها.

2– مطالع إبداعية استحسنها النقد القديم.

يهدف المقال إلى إعادة قراءة فواتح القصائد بمنظور معاصر ،ويخلص إلى بيان جوهر التجديد في شعر أبي تمام، وإثبات أن ماأتى به ليس مجرد خروج عن المألوف بقدر ماهو عمل تأسيسي حداثي.

Summary

This article analyses a number of Abu Tammam's introductory verses in some of his most important poems.

These sample introductory verses is classified as follows:

1- The verses that have been criticized by "The traditionalists" as being poorly written despite their originality.

2- And the verses that have been praised by those same "traditionalists" critics as being creative poetry.

The article aims at supplying the reader with a modern reading of ABI TAMMAM's poetry, which would lead him to a better understanding of his poet's effort to make poetry meet"Modern writing standards.

تقديم

اهتم أبو تمام ببنية القصيدة العربية اهتماما بالغا، وأولاها عناية خاصة، وأدركها بوعي وعمق، وراح ينسج قصائده على غرارها حينا ويتمرد عليها أحيانا. وتجلى هذا الاهتمام في ظواهر فنية متعددة في بنية القصيدة من أهمها: مقدمة القصيدة، المطلع، حسن التخلص، الصنعة اللفظية، الصنعة المعنوية. وسنقتصر في هذه الدراسة على المطلع.

ولا شك أن أبا تمام متشبع بالثقافة العربية الأصيلة، متمكن من اللغة العربية، بصير بالشعر العربي القديم، والدليل هو ديوانه الضخم ومختاراته الشعرية التي تكشف عن ذوق فني رفيع ودراية واسعة وعميقة بالشعر العربي، قال الحسن بن رجاء:«ما رأيت قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام.».

وقد« أخذ أبو تمام نفسه بثقافة واسعة ومتنوعة، فقد فاض زمنه بترجمة علوم الأوائل وحكمها من اليونان والفرس والهند، فنهل من تلك الألوان التي فاض بها عصره، فكان يحذق علم الكلام وفروعه وأصوله وكثيرامن الثقافات التاريخيةوالإسلامية واللغويةوالعقائد والنحل المختلفة.» [1]

إن أبا تمام يدرك ما للمطلع من أهمية بالغة في بنية القصيدة، ولذلك نجده يحاول أن يوفر له أسباب النجاح والتفوق فيحالفه الحظ في كثير من المطالع و لا يوفق في بعضها الآخر.وقد تعرض الدارسون لمواطن النضج والكمال في شعر أبي تمام عموما، وفي استهلاله خصوصا، كما تعرضوا لمواطن الإخفاق والفشل وبينوا أسباب ذلك.

أولا :مطالع إبداعية استهجنها القدماء

1- النموذج الأول

من المطالع التي عابها النقاد والدارسون ورأوا أنها لا تليق بشاعر فحل كأبي تمام هي قوله:

أهن عوادي يوسف وصواحبه فعزما، فقدما أدرك السؤل طالبه[2].

والبيت مطلع قصيدة طويلة تبلغ أربعة وأربعين بيتا. قالها في مدح أبي العباس عبد الله بن طاهر. وفيه يتحدث عن النساء اللائي أكثرن من عذله في شعره ويرى أن رأيهن غير صالح وهن يغررن بمن يسمعهن فيصير إلى ما صار إليه يوسف بن يعقوب عليه السلام، فكيد النساء أوقع به ورماه في السجن، ولهذا عليه أن يمضي في عزمه، ولا ينصت إليهن، حتى يدرك النجاح.

وقد درس القدماء بنية البيت ونبهوا إلى مواطن الوهن فيه فقالوا: «إن ما جعله رديئا قوله(أهن) فابتدأ بالكناية عن النساء ولم يجر لهن ذكر قبل، ثم قال: (عوادي يوسف) ومعناه: صوارف، يقال: عداني عنك كذا أي صرفني، أراد: هن صوارف يوسف.و(صوارف) هنا لفظة ليست قائمة بنفسها، لأنه يحتاج أن يعلم صوارفه عن ماذا؟، واللفظة القائمة بنفسها أن لو قال: (فواتن يوسف) أو (شواغف يوسف) أو نحو ذلك.وكأنه أراد صوارف يوسف عن تقاه، أو عن هداه، أو عن صحيح عزمه، إنما يتم المعنى بمثل هذه الأوصاف لو وصلها بها، ثم ألحق بيوسف التنوين، فجاء بثلاثة ألفاظ متوالية كلها رديئة في موضعها.» [3].

والمطلع في نظر القدماء يجب أن يكون محكم الصياغة، متين البنية، خال من الوهن، مشرق الديباجة، شريف الألفاظ خال من المعاظلة يسبق معناه لفظه.واستهلال أبي تمام المذكور بني بشكل يجعل الوصول إلى معناه متعبا، والكشف عن فحواه مضنيا، ويجعل مبناه صعبا غير مستساغ، وطريقة الترتيب غير معهودة. وهذا يذكرنا بقصة لطيفة ترتبط بهذه القصيدة، ذلك أن أبا سعيد الضرير[4] وأبا العميثل الأعرابي[5]كانا على خزانة الأدب لعبد الله بن طاهر بخراسان، وكان الشعراء الذين يقصدونه يعرضون عليهما شعرهم، فإن كان جيدا عرضاه عليه أو دعي صاحبه فأنشده وإن كان رديئا نبذاه. وكان أن دفع لهما أبو تمام قصيدته التي مطلعها البيت الآنف الذكر فضماها إلى أشعار الناس، فلما تصفحا الأشعار مرت هذه القصيدة على أيديهما، فلما وقعا على هذا الابتداء طرحاها مع الشعر المنبوذ، فأبطأ خبرها على أبي تمام، فكتب إلى أبي العميثل أبياتا يعاتبه فيها ومنها:

وأرى الصحيفة قد علتها فترة فترت لها الأرواح في الأجسام.

ثم لقيهما، فقالا له: لم لا تقول ما يفهم؟ فقال: ولم لا تفهمان ما يقال؟[6]

إن طريقة بناء البيت لم يألفاها، وكيفية تعامل الشاعر مع اللغة لم يعهداها، فلم يرضيا عن البيت. ولكن أنشك في قدرة أبي تمام وكفاءته؟ أنتهمه في شاعريته وفي تمكنه من اللغة وأساليب البيان وهو من هو ثقافة واطلاعا ودراية باللغة والشعر؟ أنتتبع ظواهر لغوية وفنية قصدها الشاعر في بنائه وله رأي فيها وهي من وجهة نظر أخرى غير صائبة ونلومه على ذلك؟

الحقيقة إن بداية المطلع باستفهام أمر شائع في مطالع الشعر العربي القديم، وظاهرة مطردة كقول زهير بن أبي سلمى في مطلع معلقته:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانه الدراج فالمتثلم؟[7]

وقول عنترة بن شداد في معلقته:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم؟[8]

وقول المسيب بن علس[9]في مطلع قصيدته:

أرحلت من سلمى بغير متاع قبل العطاس ورعتها بوداع؟[10]

وهو يعطي الشعر قوة ومتانة ويسمه بطابع الإنشاء و الإبداع، لأن الأسلوب الإنشائي في حقيقته ينشأ على غير مثال سابق له ولذلك لا يمكن أن يقال لصاحبه صدقت أو كذبت في حين أن الأسلوب الخبري يحكى معنى سابق الوجود.

و الاستفهام في مطلع أبي تمام استفهام غير حقيقي خرج لغــرض بلاغــي هــو التقرير وهو يكشف عن قناعة ثابتة ويقين لا يتزعزع في أن من يعذلنه في شعره مــثلهن مثل صويحبات يوسف بن يعقوب يمكرن به ويوصلنه إلى ما لا تحمد عقباه.

أما ابتداؤه بالضمير (هن) كناية عن النساء ولم يسبق لهن ذكر من قبل، واعتبــار ذلك عيبا أخل بالمطلع وشوهه فالأمر أيضا يحتاج إلى بعض التروي والدراسة المتأنية.إن الضمير يقوم مقام الاسم الظاهر، والغرض من الإتيان به هو الاختصار. [11]

والضمير المنفصل، كما هو الشأن في (هن)، يصح الابتداء به. [12]

وإن ضمير الغائب لا بد له من مرجع يرجع إليه و إلا كان غامضا قاصرا، وهــو ما اتهم به أبو تمام، وقد فصلت كتب النحو المواطن التي يرجع فيها الضمير وفحواها:

« إن الضمير يعود إلى اسم سبقه في اللفظ وهو الأصل، مثل: الكتاب أخذته.وإما أن يعود إلى متأخر عنه لفظا، متقدم عليه رتبة، مثل: أخذ كتابه زهير. فالهاء تعود إلى زهير المتأخر لفظا وهو في نية التقديم باعتبار رتبته، لأنه فاعل.

وإما أن يعود إلى مذكور قبله معنى لا لفظا، مثل: اجتهد يكن خيرا لك. أي يكــن الاجتهاد خيرا لك، فالضمير يعود إلى الاجتهاد المفهوم من (اجتهد).

وإما أن يعود إلى غير مذكور، لا لفظا ولا معنــى، إن كان سياق الكــلام يعينــه كقوله تعالى(واستوت على الجودي) فالضمير يعود إلى سفينة نوح المعلومة من المقام.» (13)

والحقيقة أن أبا تمام لم يخرج عن الأساليب العربية في مطلعه لأن سياق الكــلام يعين الضمير الذي وظفه ويوضحه، وهو لا يحتاج إلى مذكور قبله لفظا أو معنــى لكــي تفهم دلالته وهذا وارد في الأساليب العربية الفصيحة.

ومن هنا فأبو تمام لم يوظف الضمير على أساس أنه كناية عن النساء ولــم يجــر لهن ذكر قبل، وإنما وظفه لأن السياق يوضح المعنى ويجعل الضمير دالا على النساء وإن لم يجر لهن ذكر، ويكون إيجازه مقبولا وجاريا على سنن العربية.

أما النقد الموجه إلى لفظة (عوادي) على أنها ليست قائمة بذاتها لأنها بمعنى صوارف، فإذا ما قلنا صوارف يوسف. فإن الكلام غير تام، لأننا نحتاج إلى معرفة صوارفه عن أي شيء؟ وكأنه أراد صوارف يوسف عن تقاه أو عن هداه. فقوله:(عوادي يوسف) غامض وغير تام وفي حاجة إلى تكملة.

ونرى أن الكلمة لا تعني صوارف كما وهم النقاد وإنما تعني المصائب والنوائب. جاء في المعجم الوسيط: العادية: الشغل يصرفك عن الشيء،ودفعت عنك عادية فلان: ظلمه وشره.(ج) عواد. وعوادي الدهر: نوائبه. [14]فالنساء اللائي كدن ليوسف ومكرن به حتى أصابه ما أصابه من شر، هن في الحقيقة مصائب حلت بهذا النبي. وإضافة كلمة (عوادي) لكلمة(يوسف) جاء للتعريف بنوعية المصائب وتحديدها و عزلها عن بقية المصائب ونسبتها إلى شكل معين يرتبط بهذه الشخصية.

واعتبار تنوين كلمة (يوسف) خطأ فهو تشدد من الناقد ومغالاة منه لأن الأصل في الأسماء الصرف، وكل ما فعله الشاعر هو أنه أعاد الاسم إلى أصله وذلك ليس بعيب.

أما الشطر الثاني من المطلع فهو عويص لا يفصح عن معناه إلا بإعمال الفكر وكد الذهن، ويروى أن أبا سعيد المكفوف لما رفعت إليه هذه القصيدة اغتاظ وقال للكاتب: ألقها، أخزى الله حبيبا، يمدح مثل هذا الملك الذي فاق أهل زمانه كمالا بقصيدته يرحل بها من العراق إلى خراسان، فيكون بيت نصفه مخزوم والنصف الثاني عويص[15]

وقد ابتدأه بمصدر نائب عن فعله، والتقدير(اعزم)، وهو أسلوب إنشائي طلبي يفيد النصح والحث على العزم الصادق والإرادة الصلبة. وهناك تشابه في الأسلوب بين بداية الشطر الأول وبداية الشطر الثاني وتشابه في الإيجاز الذي يدفع المتلقي إلى إعادة بناء العبارة للوصول إلى الدلالة. وقد أنهى هذا الشطر بجملة تأخر فيها الفاعل عن المفعول به لاتصاله بضمير يعود على المفعول به لذا وجب تقديمه وذلك كثير في العربية.

وإذا أعدنا النظر من جديد في هذا المطلع نجد أن هذا النقد فككه إلى جزيئات متناثرة وأن الملاحظات انصبت عليها وأهملت الصورة الكلية للبيت، ومن أهم خصائص هذا المطلع في تقديرنا:

أ- الإيجاز وفيه يعتمد الشاعر على ثقافة المتلقي وتفقهه في اللغة فيختصر الأسلوب ويوجز الكلام ويستعمل كلمات تحتاج إلى إعادة بناء وترتيب، ومن ثم مشاركة مجهدة من المتلقي للوصول إلى الدلالة. ويظهر هذا الإيجاز أيضا في شكل إحالة تاريخية تثري النص وتكثفه، وتشكل نافذة يدخل منها المتلقي إلى عالم رحب سابق في الوجود متميز المعالم يحاوره الشاعر ويعيد صياغته وتشكيله في إضاءة خاطفة، ويكون الشاعر معيدا لإنتاج سابق في حدود من الحرية[16]، وقد تحدث حازم القرطاجني عن

هذه الإحالة فقال:«وأما التواريخ و القصص فإما أن تكون الإحالة فيها إحالة تـــذكرة، أو إحالة محاكاة أو مفاضلة أو إضراب أو إضافة.» [17].

وأبو تمام وظف هذه الإحالة التاريخية في مطلعه توظيفا جيـــدا، فأصـــبح عبـــارة عـــن فسيفســـاء مـــن نصوص، وتعالق نص قديم مع نص محدث بتقنية من صاحبه. [18] وقد أطلق المحدثون على هذه الإحالة اسم التناص.

إن الشطر الأول من المطلع يحيلنا ببراعة إلى نص تاريخي ديني هو قصة النبـــي يوسف بن يعقوب أو بالأحرى جزء من هذه القصة وهو مكر النساء به، وأثر ذلك المكر وما سببه له من مصائب، ولعل هذا النص استطاع أن يظهر التلاحم بين حاضر الشـــاعر المتمثل في النساء اللائي يعذلنه ويرى أنهن سيسببن له المتاعب ويقدنه إلى الهلاك وبـــين قصة تاريخية دينية كانت النساء فيها عامل إذلال ومصدر متاعب. والنص الـــذي تمـــت الإحالة إليه له من الشهرة والدلالة ما يسمح للشاعر بأن يجعل مقصده محققا. ولعل براعة الشاعر أبي تمام في هذه الإحالة تكمن في أنها إحالة مزدوجة ذات وجهين، وجهها الأول ذكرناه وهو قصة يوسف عليه السلام، ووجهها الثاني مأخوذ من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه وهو يعني النساء: «إنكن صويحبات يوسف.».

ب- صعوبة الوصول إلى المعنى إلا بعد مشقة ومعاناة وسبب ذلك فـــي تقـــديري يرجع إلى كيفية تعامل الشاعر مع اللغة وطريقة تشكيلها حيث اعتمد على السياق في لفظة (أهن)، والإحالـــة فـــي (عوادي يوسف)، والحذف في المصدر النائب عن فعله (فعزما)، والتقديم والتأخير في قوله(فقدما أدرك السؤل طالبه)، والاعتماد على الأسلوب الإنشـــائي الطلبي في الشطر الأول في الاستفهام غير الحقيقي الذي خرج إلى معنى بلاغي يفهم من السياق، وفي بداية الشطر الثاني في المصدر النائب عن فعل الأمر الذي خرج من الحقيقة إلى معنى بلاغي آخر.

هذه القضايا المتراكمة في المطلع تجعله عسر الفهم، لا يفصح عن معناه إلا بعـــد مراودة متكررة. ولذلك يكون مقروءا أفضل منه مسموعا.

ج – عدم التشاكل بين الشطر الأول والشطر الثاني، وقد لاحظ النقاد ذلك وعابوه عليه، حيث نجده «تمم البيت بعجز لا يليق بصدره، وهو أردأ معنى من الصدر، وذلك في قوله (فعزما، فقدما أدرك السؤل طالبه)، فتصير جملة معنى البيت، هن صوارف يوســـف فاعزم فقديما أدرك السؤل طالبه. وهذا الكلام لا يلائم بعضه بعضا.» [19].

و التشاكل هو أن يتحقق الانسجام والتدرج في الانتقال مـــن الشـــطر الأول إلـــى الشطر الثاني، وأن يتم التوافق والتكامل بينهما.

والمشاكلة في علم البديع هي مراعاة النظير وتسمى أيضا التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤاخاة. وهي أن يجمع المبدع أمرا وما يناسبه- لا بالتضاد لتخرج المطابقة – سواء أكانت المناسبة لفظا لمعنى أو لفظا للفظ أو معنى لمعنى.إذ المقصود جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أي وجه من الوجوه. [20]

2-النموذج الثاني

ومن المطالع التي انتقدت قوله في رثاء محمد بن حميد الطائي:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤهاعذر [21]

وعيب منه هذا الاستهلال لأن المعنى يتطلب أن يكون المرثي موضوعا أمامه ليقول(كذا فليجل الخطب)، وهو أمر مستهجن وقبيح ووصف بعضهم هذا الابتداء بالبشاعة، جاء في الموشح للمرزباني: « وكانت ابتداءات شعره بشعة منها قوله: كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر.

قال: وكان بعضهم يقول: يلزم أبا تمام أن يأتي بمحمد بن حميد الطائي مقتولا ثم يقول: كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر.» [22].

وهو استهلال ثقيل في تقديري بسبب طريقة تعامل الشاعر مع اللغة وتشكيله لها، فهي لغة صحيحة سليمة ولكن ليس فيها سلاسة وتدفق، ينقصها الطبع والرشاقة، فالابتداء باسم الإشارة الذي دخلت عليه كاف التشبيه(ك+ذا)، وإردافه بفعل مضارع مثقل بلواحق في أوله(الفاء+ لام الأمر+ فعل مضارع)يجعل التركيب مصنوعا غير جزل، لا يتوفر فيه إشراق الأسلوب وإحكام العبارة ووضوح المعنى وهو ما يطلب في المطلع. ثم عطف بالواو جملة (وليفدح الأمر) فجمع ثقلا إلى ثقل وكان كلامه أشبه بالنثر، وفي الموشح « لم يكن أبو تمام شاعرا، إنما كان خطيبا، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر.» [23].

والشعر أن تصل إلى المعنى راقصا أما في النثر فتصل إليه ماشيا، فأهم ما في الشعر هو عذوبة اللفظ ورشاقة العبارة وانسجام الإيقاع وتوازنه، وبلاغة الصورة وجودة الخيال وبراعة الإيحاء وإيجابيته.

والإيحاء الذي نكتشفه في هذا المطلع إيحاء سلبي لم يراع الموقف ومقتضى الحال، وبخاصة في ابتدائه بـ (كذا). وقالوا: لا يقال "كذا فليكن" إلا في السرور.[62] وهو استعملها في الحزن.

وجاء في الموشح إن بعضهم قال: « رأيت أبا تمام في النوم، فقلت: لم ابتدأت بقولك: كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر.

فقال لي: ترك الناس بيتا قبل هذا، إنما قلت:

حرام لعين أن يجف لها شفر وأن تطعم التغميض مأمتع الدهر.

كذا فليجل..». [24]

وفحوى الخبر أن المطلع كما هو في الديوان يحتاج إلى شيء قبلـــه يســـتند إليـــه ويتكئ عليه، فهو بمفرده قاصر به خلل يعيبه.

3-النموذج الثالث

ومن المطالع التي انتقدت قوله في مدح محمد بن حسان الضبي:

قدك اتئب أربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائي؟[25]

يخاطب أبو تمام صديقا حقيقيا أو موهوما ويلتمس منه أن يكف عن عذله وعتابـــه في الحب لأنه أسرف في ذلك وتجاوز الحد وبخاصة أن هذا الذي يعاتبه هو مثلـــه فـــي الحب، يكابد مثل ما يكابد ويعاني ما يعاني فلم يلومه ويسرف؟

وهو مطلع متكلف ثقيل على النفس ليس لأن ألفاظه غير صحيحة وغير فصـــيحة أو أن نظمها لم يجر على سنن العربية بل لأن اختيارهـــا وطريقـــة تشـــكيلها وجمعهـــا وإسنادها إلى بعضها تسبب عسرا فـــي استقبالها وفي الوصول إلى معناها، فـــأبو تمـــام يتحرى الغريب، ويبدي في أسلوبه، وهو الحضري ابن المدنية الزاهية والترف والنعمـــة فالأولى أن يكون تعبيره عن بيئته الرقيقة وعيشته المترفة، ممثلا للزمان والمكان اللذيـــن ولـــد فيهمـــا، ولعل جمـــع أبـــي تمـــام للألفـــاظ(قدك، اتئب، أربيت في الغلواء) فـــي مصراع واحد جعله فاتحة القصيدة وغرتها، هو الذي تسبب في نفور مؤقت يحـــس بـــه المتلقي، وعدم استساغـــة النص، وشعور بالقطيعة بينهما، ولذا وصف بعض الأقدمين هذا المطلع بالبشاعة فقالوا:« وكانت ابتداءات شعره بشعة، منها قوله: قدك اتئب أربيت فـــي الغلواء.» [26]، وأنكروا عليه جمع الكلمات في مصراع واحد جعله مطلعا لقصيدته ولـــم يفرق بينها بفواصل. [27]

غير أننا لو بدلنا كلمات المصراع الأول بألفاظ قريبة المأخذ لطيفة المسمع، عذبـــة في النفس، وليدة بيئة متحضرة، بعيدة عن البداءة والإغراب لكان المصراع مقبولا، فسبب النقد إذن يرجع إلى مبالغة الشاعر في التماس اللفظ الغريب والجمع بين متعدد منـــه فـــي شطر بيت.

ومن أهم ما يميز أسلوب هذا المطلع هو طريقة التفات الشـــاعر مـــن المخاطـــب المفرد في المصراع الأول إلى جماعة المخاطبين في المصراع الثاني، والالتفات ظـــاهرة فنية بديعية قديمة في الشعر العربي وقد اهتم بها النقاد العرب القدماء ونظروا لها مثل ابن المعتز الذي عد الالتفات من محاسن الكلام وبديعه، وجعله قدامة بن جعفر مـــن نعـــوت المعاني، وتحدث عنه أبو هلال العسكري وابن رشيق والســـكاكي وضـــياء الـــدين بـــن الأثير[28]. وأبو تمام يوظفه توظيفا حسنا تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه، وبه

يتحقق الرد على كل من يلومه ويعذله في حبه، فلا يبقى الرد مقتصرا على مخاطب واحد، بل هو عام وشامل وحازم.

كما يتميز أسلوب هذا المطلع بأنه إنشائي في مصراعه الأول والغرض البلاغي منه هو التماس مبطن باللوم والعتاب قدمه إلى مخاطبه الذي أسرف في تعنيفه وغالى في عتابه على حبه. وهو إنشائي أيضا في مصراعه الثاني والغرض البلاغي منه هو التعجب من حال هؤلاء الذين يعذلونه في حبه وهم مثله، فالمطلع ثري بأساليبه غني بإيحاءاته، مصنوع بمهارة في ألفاظه وظواهره البلاغية والأسلوبية، يعبر بحق عن صنعة أبي تمام.

ثانيا :المطالع الإبداعية المستحسنة

1- ومن المطالع التي أبدع فيها وتفوق وسن طرقا جديدة للمطالع استهلاله بوصف الطبيعة كقوله في مدح المعتصم:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثري في حليه يتكسر[29].

وقوله في مدح داوود بن محمد:

غنى فشاقك طائر غريد لما ترنم والغصون تميد[30].

وقوله يمدح محمد بن الهيثم بن شبانة:

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب[31].

وقوله في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى:

قد شرد الصبح هذا الليل عن أفقه وسوغ الدهر ما قد كان من شرقه [32]

وأحسن ما في هذه الابتداءات جدة موضوعها، وصف الطبيعة، وهي ابتداءات تنتمي لمقدمات كاملة خصصت لهذا الغرض، وهو بذلك يضيف لونا جديدا من المقدمات يثري به مقدمات الشعر العربي المعروفة كالمقدمة الطللية والغزلية والطيفية والشيبية والخمرية ومقدمة الفروسية.

وفي هذه المقدمة الجديدة يربط الشاعر بإحكام وبراعة بين بهجة الطبيعة وإشراقها، وغناها وفوائدها، وبين خصال ممدوحه، ويقابل بينهما، وهو يطوع ما في الطبيعة من قسوة وجبروت، ويمكن لكل ما ينم فيها عن السعادة والبشر والجمال ويجعله يدحض كل ما ينم فيها عن الهم والمتاعب.

ولعل كلمتي الدهر والليل من الكلمات المشحونة بالهموم والمعاناة والآلام والقسوة في الشعر العربي، نجد أبا تمام في مطالعه يذللهما ويضفي عليهما نوعا من اللين والوداعة، فالدهر رقت حواشيه، ولم يعد ذلك العاتي الغاشم الذي لا يقهر ولا يبقي على أي شيء، لم يعد ذلك المارد المبهم الذي ينال ولا ينال، لقد أصبح وادعا ألوفا رقيقا، بل إنه صار يساعد على تخطي الصعاب وتجاوز المحن، وتخندق مع الإنسان يدعمه ولا

يقف ضده، والليل صار هشا يندحر أمام الصبح بسهولة ويسر، لم يعد ظلامه مخيفـــا ولا زمنه طويلا ولا كلكله ثقيلا.

وفي الطبيعة يحدث ذلك التكامل العجيب بين ظواهرها، والانســـجام التـــام بـــين عناصرها والتلاحم الوثيق بين الأشكال والأصوات والألوان والأبعاد والأضـــواء وبـــين الحاجات والأهداف فيها. ويوظف الشاعر كل ذلك ليهيئ لمدحه أسباب النجاح.

2- ومن مطالعه التي أبدع فيها وحاز السبق والتفرد استهلاله في قصيدته الرائعة في مدح المعتصم:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب. (33)

يمتاز هذا المطلع بالفخامة والجزالة وإحكام السبك وجودة التعبير ورقـــة الألفـــاظ ووضوح الدلالة، وهي صفات تتسم بها كثير من المطالع، لكن ما يطبـــع هـــذا المطلـــع بالخصوصية هـــو طريقـــة تعامل الشاعر مع اللغـــة وتشكيلـــه لهـــا، «فالألفاظ تحمـــل أكثر من معانيها، وكل لفظ ليس مستقلا في حد ذاته، وإنما جاء به ما بينه وبين غيره من تناسب وتجانس وتضاد.فالسيف استعمل هنا رمزا إلى القوة والحـــرب، والكتـــب وردت رمزا إلى التنجيم وليس المراد بها سائـــر الكتب، والحد الثاني ومعناه الفصل بين الشيئين إنما أتت به مجانسته للحد الأول حد السيف، والحد الأول إنما أتى به جناس التصحيف مع الجد. ولفظ الجد هنا استدعى اللفظ المضاد وهو اللعب.» (34)، فهناك بناء محكم للألفـــاظ يستدعي بعضها بعضا في تناسق ظاهر وصنعة بينة والأمر لا يتوقـــف علـــى الجانـــب الشكلي لبنية الألفاظ وترتيبها وعلاقاتها بينها بل ينعكس ذلك على طريقة تفكير الشـــاعر. وهي طريقة جدلية معقدة تختلف عن طرقة التفكير العربي البسيطة، وتتمثل هذه الطريقة في عرض الفكرة ونقيضها ومن طرحهما تبرز الفكرة المنقحـــة، ففكرة القـــوة والحـــرب التـــي يرمـــز لهـــا السيف، تناقضها فكرة التنجيم التي ترمز لها الكتب ومـــن صـــراع الفكرتين يبرز اليقين وتتأكد الحقيقة ويدرك الناس خسران الثانية ونجاح الأولى.

ومن تقابل فكرتي الجد واللعب وتضادهما تبرز فكرة ثالثة تقضي علـــى التـــردد بينهما وتحقق الفصل وهي فكرة القوة الفاصلة، هذا التوليد للمعاني عن طريـــق صـــراع الأفكار وتضادها، فالتضاد هنا أساس الأفكار، هو مذهب شعري مبتكر له علاقة كبيـــرة بالفلسفة. « إن الشعر العربي في الحقيقة لم يخل في يوم من الأيام من هـــذه المقـــابلات المتضادة التي هي من خصائص الفكر. ولكن الفرق كبير بين إبرازها حين تشـــف عـــن حركة طبيعية دون أن يتجاوز التعبير هذه الحركة وبين اعتماد التضاد وتصالب الأفكـــار وتقاطعها في أغلب الأحيان إن لم يكن في جميعها لبلوغ الغرض الفني.» (35).

إن طرح الفكرة ونقيضها ثم جمع الفكرة والنقيض معا في ما يدعى بالتركيب هو أسلوب أبي تمام في مطلعه.

ولعل ما يميز هذا المطلع أيضا هو أنه يحيلنا ببراعة ودقة وعمق إلى وقائع تاريخية وحوادث وجدل كثير وقع منذ أمد طويل، إنها وقائع قصة فتح عمورية من الخليفة العباسي المعتصم، جددها الشاعر في ومضة خاطفة.

3- ومن مطالعه البهية الفخمة ودرره الصافية النقية، استهلاله في قصيدة يمدح بها المعتصم بقوله:

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار. (36)

الجملتان الاسميتان في المصراع الأول توحيان بالثبات والمعرفة اليقينية، والجملة الثانية منهما كناية عن التأهب للحرب والاستعداد للذود عن الحق ورد المنحرفين عنه، فالحق واضح مشرق وكل من ينحرف عنه ويضل يجابه بقوة لا قبل له بها، والجمع بين الحق والقوة يحقق العدالة والأمن والاستقرار، وهما في يد أسد العرين وهو ممدوحه، ووجود القوة بجانب الحق تجعله مهابا محترما مصونا، وطرح الخبر بهذه الكيفية فيه وعيد وتحذير لكل مارق.

وفي المصراع الثاني يفصح الشاعر عن تحذير شديد من غضبة ممدوحه يوجهه إلى كل من فكر أو يفكر في التمرد عليه، أي التمرد على الحق. وجاء تكرار اسم الفعل حذار ليبعث الخوف والهلع في نفوس المتمردين وخاصة إذا جمعنا هذا التحذير بالسيوف المجردة استعدادا للفتك والتي هي في يد شجاع باسل رهيب، وجاءت الاستعارة التصريحية في قوله (أسد العرين) لتهويل الموقف ومساندة فكرة التحذير، وبعث الرعب في نفوس المتمردين.

والمطلع يجمل القصيدة ويلخصها، والقصيدة تشرحه وتفصله وهي تتكلم عن غضب المعتصم (أسد العرين) وانتقامه من قائده الأفشين الذي مرق وتمرد فكان أن هلك حرقا.

4- ومن المطالع التي جمعت بين عبق القديم وجلاله وجمال الحاضر وبهائه، وأسلوب أبي تمام في التضاد وإحكامه، وصراع الفكر ونظامه قوله في استهلال قصيدة يمدح بها أبا سعيد الثغري:

من سجايا الطلول ألا تجيبا فصواب من مقلة أن تصوبا

فاسألنها واجعل بكاها جوابا تجد الشوق سائلا ومجيبا. (37)

في البيت الأول من المطلع يطرح فكرتين قديمتين ترددتا كثيرا في المقدمات الطللية، تتمثل الفكرة الأولى في أن الطلول لا تجيب سائلها، قال لبيد بن ربيعة:

فوقفت أسألها وكيف سؤالنـــا صما خوالد ما يبين كلامها. (38)

وقال زهير بن أبي سلمى:

أمـــن أم أوفى دمنـــة لم تكلم بحومانـــة الدراج فالمتلثم؟ (39)

وهي فكرة وقف عندها النقاد ولم يأخذوها بظاهر معناها بـــل تعمقوهـــا وأولوهـــا وربطوها بالحياة والموت وقضايا الوجود ومصير الإنسان.

وتتمثل الفكرة الثانية في البكاء على الأطلال وهي فكرة اشتهرت فـــي المقـــدمات الطللية القديمة، حيث لا نجد ذكرا للطلل إلا والبكاء يصحبه، بل إنه يشكل عنصرا أساسيا في بناء المقدمة الطللية.

قال بشر بن أبي خازم:

تغيرت المنـــازل بالكـــــثيـــب وغير آيهـــا نســـج الجنوب

وقفت بها أسائلها ودمـــعـــي على الخدين في مثل الغروب. (40)

وقال الشماح بن ضرار:

ولما رأيت الدار قفرا تـــبادرت دموع للوم العاذلات ســـبوق. (41)

وهذه الفكرة أيضا لم يأخذها النقاد بظاهر معناها بل تعمقوها وربطوهـــا بالفنـــاء والمصير الإنساني والوجود.

وأبو تمام في بيته الأول من المطلع يقابل بين الفكرتين ويجعلهمـــــا متكـــاملتين، تتواجد الثانيـــة بوجود الأولى، فالفكرة الأولى سبب وعلة في وجود الفكرة الثانية. فـــإذا كان من طبع الأطلال الدارسة ألا تتكلم وألا تشفي غليل سائلها، فحـــق للواقـــف عليهـــا المتعلق بها أن يسكب الدمع مدرارا.

وفي البيت الثاني نجد الشاعر يؤكد معنى البيت الأول لكن بتشكيل لغوي يتلاعـــب فيه بالألفاظ ويعتمد على التضاد لإبراز المعنى وهو شدة الشوق وألم الوجد الذي أضـــربه وجعله يقف ويبكي.

إن أبا تمام لم يكتف في مطلعه ببيت واحد بل دعمه ببيت ثـــان يشـــد مـــن أزره ويحقق معناه وهو أمر كان القدماء لا يقبلونه لأنهم يرون أن المطلع يجب أن يكون بيتـــا وحيدا مستقلا، غير أن المحدثين المعاصرين لأبي تمام خرجوا على هذه السنة وأبـــاحوا لأنفسهم أن يكون المطلع أكثر من بيت، قال حازم القرطاجني: « وأحســـن المبـــادئ مـــا تناصر فيه حسن المصراعين وحسن البيت الثاني.». (42)

ومطلع أبي تمام نير المعنى، عذب اللفظ، حسن وقعه على السمع، بديع التركيب، وجيز، تام، يجمع فيه بين الماضي العتيق والحاضر الأنيق، وتظهر فيـــه طريقتـــه فـــي التعامل مع اللغة والمعاني، باعتماده التضاد أساسا للأفكار.

ولهذا نجد بعض الرواة كابن الأعرابي يهاجمون بشدة هذا الشاعر ويرون أن ما جاء به ليس شعرا. قال ابن الأعرابي وقد أنشد شعرا لأبي تمام:«إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل»[43] فأبو تمام خرج على عمود الشعر العربي، مع اطلاعه الواسع على اللغة وعلى أساليب العرب.

«ويروى أن أعرابيا سمع قصيدته:

طلل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئي بذاك شهيدا.

وسئل كيف ترى هذا الشعر؟

فقال: فيه ما أستحسنه، وفيه ما لا أعرفه ولم أسمع بمثله. فإما أن يكون هذا الرجل أشعر الناس جميعا وإما أن يكون الناس جميعا أشعر منه.» [44].

لقد أحس هذا الأعرابي بفطرته أن هناك أسلوبا جديدا وطريقة مختلفة في تشكيل اللغة عند هذا الشاعر لم يعهدها في ما مضى به من شعر.

إن أبا تمام استوعب الشعر القديم وتفقه في اللغة واطلع على ثقافة عصره وهضمها وأراد أن يضيف شيئا جديدا إلى الشعر العربي فكانت هذه الطريقة المتميزة التي تعتمد الجدلية لإنتاج الأفكار، فالتضاد هو أساس الفكر. وتبقى الخصائص الأخرى كالإغراق في المحسنات البديعية والتعقيد المعنوي هي نتيجة لهذه الطريقة الفكرية.

ومن هنا جاء الاختلاف البين بين القدماء حول هذا الشاعر بين معجب بشاعرية أبي تمام وطريقته متعصب له، وبين ناكر لشاعريته متحامل عليه.

ومطالعه هي نصوص شعرية ذات بنية تامة تتعالق مع البنيات الأخرى التي تشكل القصيدة من جهة، وتنفصل عنها كوحدة تمثل مبادئ القصائد متميزة عنها من جهة أخيرة.

وهي نصوص ثرية عميقة ذات إيحاءات وإحالات(تناص) تعتمد على تنوع الأساليب والدلالات البلاغية الخصبة التي يوفرها هذا التنوع، كما تعتمد على مرونة اللغة وخصائصها في التقديم والتأخير والإيجاز، ووظف البديع كالجناس والطباق والمقابلة للوصول إلى طريقة مستحدثة مقصودة في تشكيل اللغة، فجاءت بعض النصوص غريبة.

الهوامش

1- أبو تمام، الديوان، تحقيق إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص89.

2-عبد الفتاح لاشين، الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام، دار المعــارف، مصر، 1982، ص86

3- أبو سعيد الضرير أحمد بن أبي خالد البغدادي، استقدمه طاهر بن عبد الله من بغداد إلى خراسان، لقي بن الأعرابي وغيره، وكان من الأدباء وعلماء اللغة.

4- هو عبد الله بن خليد مولى جعفر بن سليمان العباسي كاتب عبد الله بن طاهر، وكان هو وأبو سعيد الضرير صاحبي عبد الله بن طاهر القيمين بأمر خزانة الحكمة بخراســان وكانا من أعلم الناس بالشعر، وكان عبد الله بن طاهر لا يسمع من شاعر إلا إذا عــرض عليهما شعره ورضياه.

5- عبد الفتاح لاشين، الخصومات البلاغية والنقدية في صنعة أبي تمام، ص87.

6-الزوزني، شرح المعلقات السبع، مطبعة مصطفى محمد،مصر1938 ص85.

7- نفسه، ص162.

8- المسيب: لقب لقب به واسمه زهير بن علس بن مالك، وهو خال أعشى قيس، وكان الأعشى راويته، وكان يطري شعره ويأخذ منه.وهوجاهلي لم يدرك الإسلام ولا عقب له.

9- المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد الســلام هــارون، دار المعارف، مصر، ط4، د.ت، ص60.

10- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط4، 1980، ج1، ص121.

11- نفسه، ص120.

12- نفسه، ص 126/125.

13- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار المعارف، مصر،ط2، 1972، ص589.

14- المرزباني، الموشح،تحقيق علي محمد البجــاوي، دار النهضــة، مصــر،1965، ص500.

15- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص124.

16- حازم الفرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار المغرب الإسلامي، ط2، 1981، ص221.

17- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص121.

18- عبد الفتاح لاشين، الخصومات البلاغية والنقدة في صنعة أبي تمام، ص87/86.
19- عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت،لبنان،1974،ص171.
20- أبو تمام، الديوان، ص670.
[21]- المرزباني، الموشح، ص467/466.
[22]- نفسه، ص465.
[23]- نفسه، ص498.
[24]- نفسه، ص467.
[25]- أبو تمام،الديوان، ص17.
[26]- المرزباني، الموشح، ص466.
27-عبد الفتاح لاشين،الخصومات البلاغيةوالنقدية في صنعةأبي تمام،ص72
[28]- عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص138/135.
[29]- أبو تمام، الديوان، ص255.
[30]- نفسه، ص263.
[31]- نفسه، ص119.
[32]- نفسه، ص388.
33- نفسه، ص22.كان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتح عمورية في ذلك الوقت، وعند حصارها راسلته الروم بأنها تجد في كتبها أنه لا تفتح مدينتهم إلا في وقت إدراك التين والعنب، وبينهم وذلك الوقت أمد طويل يشتد فيه البرد والثلج، فأبى المعتصم أن ينصرف وأكب عليها وفتحها.
[34]- عبد الكريم اليافي، دراسات فنية في الأدب العربي، مطبعة دار الحياة، دمشق، سوريا، ط1، 1963، ص105.
[35]- نفسه، ص112.
[36]- أبو تمام، الديوان، ص289.
[37]- نفسه، ص66. - تصوب: يتهاطل دمعها.
[38]- الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص111.
[39]- نفسه، ص85.
[40]- صلاح عبد الحفيظ، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، دار المعارف، مصر، ط1، 1981، ص4.
[41]-الشماخ بن ضرار،الديوان، تح. صلاح الدين الهادي،دارالمعارف،مصر،د.ت،ص22.

[42]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص310.
[43]– المرزباني، الموشح، ص465.
[44]– عبد الكريم اليافي، دراسات فنية في الأدب العربي، ص108.